



خطبة صلاة الجمعة 30 / 2 / 2017 للشيخ الطبيب محمد خير الشعال, في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

(جواب المشاورة والمدارسة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليفه، خيرُ نبيِّ اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كرهه، اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى في سورة الشورى في وصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: 38].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [ال عمران].

أخرج الطبراني في الأوسط عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا خَابَ مَنْ اسْتَشَارَ، وَلَا نَدِمَ مَنْ اسْتَشَارَ، وَلَا عَالَ مَنْ اقْتَصَدَ».

عن الحسن قال: والله ما استشار قوم قط إلا هُدوا لأفضل ما بحضرتهم، ثم تلا ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾.

وروى البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْمُسْتَشَارَ مُؤْتَمَنٌ».

عنوان خطبة اليوم: جواب المشاورة والمدارسة

أيها الإخوة الكرام:

كل عام وأنتم بخير، أعاد الله هذه الأيام عليكم أعواما عديدة وسنين مديدة مع سلامة الدين والبدن وأمان الأسرة والوطن. وعجل للشام بالفرج ولسائر بلاد المسلمين، بل لعباد الله أجمعين.

كان عنوان أول خطبة بعد رمضان الماضي (مشاورة ومدارسة) كانت بتاريخ الخامس من شوال/ 1437 الموافق للتاسع من تموز 2016.

استشرتكم فيها في مسألة مهمة تمر بنا جميعا خلاصتها أننا نتزاحم في رمضان على العبادات الشعائرية من صلاة وصيام وأذكار ولكن عددا لا بأس به منا يقصر في العبادات التعاملية، فالمحافظة على نظافة الطرقات والمساجد والحدايق العامة، والالتزام بالنظام والدور والوقت، ورعاية الجار والأرحام والزوج والولد، وأداء الحقوق المالية إلى أهلها ليس بالمستوى المطلوب.

فبعض المصلين لا يؤدون الالتزامات المالية الواجبة عليهم وبعض الصائمين لا يغضون طرفهم عن المحرمات وبعض الذاكرات لا تنضبط باللباس الشرعي.

وصحيح أن هذه الأعمال غير الجيدة من مخالفة النظام أو ظلم المرأة أو إهمال الزوج أو أذية الجار أو نحو ذلك يمارسها من ليس ملتزما بصلاة أو بصوم أو بدين أصلا، ولكن بعض المصلين الصائمين يفعلون.

فكيف نستطيع أن نعين أنفسنا على أن نتحلى بتعاليم ديننا في سلوكنا كما نتحلى به في شعائرننا.

ما السبب في هذه المشكلة، وما الحل المقترح لها، وكيف ننفذ هذا الحل؟

استشرتكم العام الماضي في هذه المسألة ما السبب في هذه المشكلة -أعني الفصام أو الازدواجية بين العبادات التعاملية والعبادات الشعائرية- وما الحل المقترح لها وكيف ننفذ هذا الحل.

وقد راسلني أو كتب لي -مشكورا- أزيد من ثلاثمائة أخ وأخت وقد جمعت باهتمام ماقالوا وقارنت بينه وضممت النظر إلى النظر، وأعرض عليكم في خطبة اليوم أهم ماكتبتم في أربعة بنود رئيسة. متوقعا من كل منا ان يراجع نفسه ليتمم النقص ويستكمل الفوت.

أول أسباب هذه المشكلة -على ما ذكرتم- الجهل بحقيقة الدين، وثانيها الغفلة عن الله وما تورثه من أمراض نفسية كالرياء والأثرة وحب الظهور وسائر الأمراض الباطنة للنفس، وثالثها غياب القدوة الحسنة أو ندرتها وضعف الدعاة أنفسهم، ورابعها عموم البلوى وضعف التربية.

- أما الجهل بحقيقة الدين فقد ورث عدد من المسلمين الدين عن والديه ولم يلحق بمجالس العلم ومدارسه فقصروه على مناسك الصلاة والصوم والحج والزكاة وما علموا أن النفقة على الزوجة إقامة

لدين الله وأن الحفاظ على نظافة الطريق تطبيق لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن إتقان العمل إعلاء لكلمة الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت» [أبو داود]، وقال «بينما رجل يمشي بطريق وجد غُصْنَ شوك على الطريق، فأخَّزَهُ، فشكر الله له فغفر له» [البخاري] «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتَّقِنَهُ» [أبو يعلى].

ولا ريب بأن الحل بالنسبة لهؤلاء يكمن في تعلم الدين في مدارسهم ومن أهلهم وعلمائهم، وما عليه أن يلتزم المسلم بمجلس علم على أقل تقدير في الأسبوع إن لم يكن ممن يلتحق بمدارس العلوم الشرعية وكلياتها، فقد روى البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال (كان لي جارٌّ من الأنصار، فكُنَّا نَتَّأَوَّبُ النُّزُولَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَنْزِلُ يَوْمًا، وَأَنْزَلَ يَوْمًا، فَيَأْتِينِي بِخَبَرِ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ، وَآتِيهِ بِمِثْلِ ذَلِكَ).

على أن بعض الدعاة قصروا خطابهم الدعوي على العبادات الشعائرية، ونحوها وأهملوا العبادات التعاملية، إما لصعوبة البحث فيها أو لبعدهم عن معاملات الناس، فانعكس أثر خطابهم فيمن يتلقى عنهم أن اعتنى بالشعائر وقصّر في غيرها، وإني لأذكر أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إني أصبتُ ذنباً عظيماً، فهل لي من توبة؟ فقال: «هَلْ لَكَ مِنْ أَمٍّ؟» قال: لا، قال: «فهل لك من خَالَةٍ؟» قال: نعم، قال: «فَرِّهَا» [الترمذي].

فوجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبادة تعاملية يكفر الله بها عنه ذنبه. وأذكر أن في القرآن سورتي الحديد والأنعام يشير بهما إلى الاعتناء بالثروة المعدنية والحيوانية وليس فيه سورة الصلاة والزكاة مع أهمية الركنين وعظيم قدرهما. وبإمكان المسلم ليحل هذه المشكلة أن يبحث عن معلم يجمع في خطابه وتوجيهه بين الدنيا والآخرة وبين العبادات الشعائرية والتعاملية وبين القول والعمل.

على أن وزارة الأوقاف مشكورة تسعى حثيثاً في مناهجها الجديدة لطلاب الثانويات الشرعية أن تجمع لهم فيها بين الأمرين لينشأ الطالب منذ نعومة أظفاره على مراعاة جانب الشعائر وجانب التعامل. فيتخرج من يتخرج من دعاها متوازناً لا يميل إلى جانب دون آخر.

وبعيداً عن الخطاب فإن الناس ترى في الدعاة قدوات فحين ينضبط الدعاة في العبادات التعاملية ينضبط الناس من ورائهم على الغالب.

أذكر أن الشيخ أحمد كفتارو رحمه الله قال لنا مرة: إذا كان موعد فتحة عيادة أحدكم الثامنة صباحاً وجاء في الثامنة والرابع فقد عصي الله، ودخل الشيخ مرة المسجد فأسرع الحاضرون ليتحلّقوا حوله بعد الصلاة فسأل شاباً منهم لماذا أنت في المسجد فقال الشاب: أحضر لامتحان بعد أيام فقال الشيخ ولماذا لا أرى الكتاب في يدك!.

وحدثنا عن والده الشيخ أمين أنه كان لفقره يشتري لبيته في كل أسبوع بأوقية لحم فاضطر للاقتراض يوماً فجاء بنصف أوقية فلما سألته زوجته عن ذلك أخبرها أنه يريد أن يرد للناس ما لهم في أسرع وقت.

كل هذه عبادات تعاملية يعلمها الدعاة لمن ورائهم بالعمل قبل القول وبالعين قبل الأذن. فما أحوج البلد إلى معاهد تخرج الدعاة الأكفاء الذين يضمون إلى القول العمل وإلى الآخرة الدنيا وإلى العقل القلب.

– وأما الغفلة عن الله؛ فهي سبب مهم في مشكلة الفصام الحاصل عند بعض المسلمين في مراقبته لله تعالى في صلاته وغفلته عنه في بيعه وشرائه وفي ملاحظته لأمر الله في صومه وغفلته عنه في علاقته مع النساء من غير محارمه، فضلاً عما تورثه الغفلة عن الله من أمراض نفسية كالرياء والأثرة وحب الظهور وسائر الأمراض الباطنة للنفس، فتري المرائي إذا لقي الناس تزيي بزي الصالحين وإذا خلا بارز ربه بالعظائم، وتري الطامع يأخذ حقه من الإرث ويجاوز فيه ويعطي على مضض إخوانه حقهم ويقصر فيه. قال الإمام الجنيد: (تأمل في ذنوب أهل الإسلام، فلم أر منها ذنباً أعظم من الغفلة عن الله).

وعلاج الغفلة بكثرة ذكر الله، في السر والعلن في الجماعة والافتراء ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا

وَخَيْفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 205]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ ابْنِ عُمَرَ إِلَى مَكَّةَ فَعَرَّسْنَا، فَاخْتَدَر عَلَيْنَا رَاعٍ مِنْ جَبَلٍ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: أَرَأَيْتَ أَنْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: بَعْنِي شَاةً مِنَ الْعَنَمِ؟ قَالَ: إِنِّي مَمْلُوكٌ. قَالَ: قُلْ لِسَيِّدِكَ أَكَلَهَا الذِّئْبُ. قَالَ: فَأَيَّنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَأَيَّنَ اللَّهُ، ثُمَّ بَكَى.

إنها العبادة التعاملية ولو غفل الراعي عن الله لباعها ولسقط.

وحدثني أخ منكم جاءته فتاة من أجمل خلق الله تطلب منه مالا وتعرض نفسها عليه بالحرام، فلما استعلم أمرها وجدها محتاجة مالا للنفقة على أبيها المريض وأمها وأخواتها الصغيرات، فجعل يرسل لبيتهم نفقتهم الشهرية على أن تترك الحرام ففعلت. وأخبرني أنه لولا الخوف من الله لفعل وفعل.

إنها العبادة التعاملية ولو غفل الرجل عن الله لوقع في الحرام وسقط.
مجالس الذكر وحلق الذكر والذكر في انفراد مُعينات على طرد الغفلة ومراقبة الله في السر والعلن،
وبها تكتمل العبادات الشعائرية والتعاملية.

وأما غياب القدوة الحسنة أو ندرتها فقد مر الحديث عنها مع السبب الأول.

وأما السبب الرابع الأخير فهو عموم البلوى وضعف التربية، إذ يستسهل المرء الخطأ عندما يجد الآخرين يُخطئونه، ويعتقد المرء صواب أمر إن وجد الكثيرين يعتقدونه، وعندما ينشأ الفتى فينا ليرى والده فصل بين حسن صلاته وسوء فعالة، وبين الإحسان إلى اليتيم والإساءة إلى الجار، وفرق بين الصيام والحلق الحسن، وأتقن الحج وفرط في رد الحقوق لأهلها، يظن أن الأمر صوابه ما فعل أبوه، ولعله يسر بسيره.

ويفيد في حل هذه المشكلة أن يوطن المرء نفسه على الخير ولو فعل الناس غيره، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَا يَكُنْ أَحَدُكُمْ إِمَّعَةً، يَقُولُ: أَنَا مَعَ النَّاسِ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنْتُ، وَإِنْ أَسَاءُوا أَسَأْتُ، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا أَنْ لَا تَظْلِمُوا» [الترمذي].

كما ينفع في حل هذه المشكلة أن نعود إلى تربية أبنائنا فنزرع فيهم الصواب وندربهم على الصحيح من الأقوال والأفعال.

أيها الإخوة:

إني لأعلم أن الإصلاح الاجتماعي يحتاج إلى وقت طويل وجهد كبير ليحدث، ولكن الطريق الطويل بدايته خطوة، ورجائي بالله أن يعيننا الله لنكون سببا في نشر الوعي والعمل الصالح في البلاد والعباد.

والحمد لله رب العالمين